

إذا صلح القضاء صلحت الحياة

د. محمد الشريف قاهر*

القضاء مصدر مأخوذ من فعل قضى يقضي قضاء وقضيا وقضية والجمع الأقضية والقضايا. ووردت هذه الكلمة في اللغة لمعان كثيرة وتعود كلها إلى انقضاء الشيء وتماهه - وقضى القاضي بين الخصمين: حكم وفصل بينهما. والحكم في مادته معناه المنع، ومنه حكمت السفينة إذا أخذت على يده ومنعته من التصرف في أمواله، ومن ذلك سمي القاضي حاكما لأنه يمنع الظالم من ظلمه. فهو يضع الحق في أهله، ويمنعه على من ليس له بأهل - وكما سميت الحديدة التي في لجام الفرس وغيره من الدواب حَكَمَةً لأنها تردّها عن المعاطب وتمنعها من الاعتداء على المحاصل¹.

وقضى الله: أمر قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...²﴾. وقضى إليه: أنهى إليه أمره. قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفَسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا³﴾.

وقضى الصلاة والصوم والحج والدين: أداها بعد مضي وقتها.⁴ وقضى الواجب والشيء: أتمه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ⁵﴾

* أستاذ بجامعة الجزائر وعضو المجلس الإسلامي الأعلى
1. أنظر لسان العرب للعلامة ابن منظور، م5، ص: 111-112. - 2. سورة الإسراء - الآية 23. - 3. سورة الإسراء، الآية 4. - 4. المعجم الوسيط. مادة قضى. - 5. سورة الجمعة، الآية 10. 11.

واقض ما شئت: افعل ما تريد قال تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنْ مَّا تُقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا..¹﴾

وتأتي قضى بمعنى أراد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ²﴾

ويقول في آية أخرى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ³..﴾

وتأتي القضاء بمعنى الموت ونهاية الحياة قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ⁴..﴾

وبمعنى القتل وإزهاق الروح. قال تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ..⁵﴾

وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ⁶..﴾

وبمعنى الفصل والحكم النهائي قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ⁷..﴾

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ..⁸﴾

وبمعنى الخلق والإيجاد قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ..⁹﴾

وبمعنى الكتابة والفرض قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا..¹⁰﴾ أي مكتوبا مفروضا في الأزل.

وبمعنى الفراغ والانتهاء قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ¹¹..﴾

1. سورة طه، الآية 72. - 2. سورة البقرة، الآية 117. - 3. سورة مريم، الآية 35. - 4. سورة الزخرف، الآية 77. - 5. سورة القصص، الآية 15. - 6. سورة الأحزاب، الآية 23. - 7. سورة الزمر، الآية 69. - 8. سورة غافر، الآية 78. - 9. سورة فصلت، الآية 12. - 10. سورة مريم، الآية 21. - 11. سورة هود، الآية 44.

ويعني الإلزام بالحق والخضوع للأمر. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ..¹﴾ وإلى غير ذلك من المعاني التي يطول ذكرها.

هذا وقد وردت كلمة "قضى" وما اشتق منها في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة. هذا ما يتعلق بالقضاء لغة أما اصطلاحاً فقد ورد فيه عدة تعاريف نذكر منها ما يأتي :

1- قال أبو عمر البهلول بن راشد الحجري الرعيني القيرواني:

(128-183 هـ) حقيقة القضاء الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام

2- وقال أبو بكر عبد الله بن طلحة الأندلسي : (511-598 هـ)

القضاء الدخول بين الخلق والخالق ليؤدي فيهم أمره بواسطة الكتاب والسنة

3- وقال ابن عرفة أبو عبد الله محمد (ت: 803 هـ)

القضاء صفة حكمية توجب لموصوفها نفوذ حكمه الشرعي ولو بتعديل أو تجريح لا في عموم مصالح المسلمين.²

شروط القاضي

والقاضي اسم فاعل مأخوذ من فعل "قضى" يقضي قضاء فهو قاض. وهو من يعينه أولو الأمر للنظر في الخصومات والدعاوي وإصدار الأحكام التي يراها طبقاً للشرعية والقانون. فعلى الإمام أن يجتهد لنفسه وللمسلمين وأن لا يجابي في التعيين أحداً بل يجب عليه أن لا يقصد في إسناد خطة القضاء إلا وجه الله تعالى والصالح العام.

فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما من أمير أمر أميراً أو استقضى قاضياً محاباة إلا كان عليه نصف ما كسب من الإثم،

1. سورة سبا، الآية 14. - 2. أنظر: البهجة في شرح التحفة لأبي الحسن على بن عبد السلام السهولي ج 1. ص: 18.

وإذا استقصاه نصيحة للمسلمين كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى ولم يكن عليه شيء مما عمل من معصية الله تعالى. وليختر رجلا عالما من أهل الدين والفضل والورع والتزاهة والفطنة. وقد عرّف القاضي أبو بكر بن عاصم الغرناطي الأندلسي (ت: 829 هـ) في أرجوزته المسماة: "تحفة الأحكام في نكت العقود والأحكام" بقوله:

منفذ بالشرع للأحكام له نيابة عن الإمام
واستحسن في حقه الجزالة وشرطه التكليف والعدالة
وأن يكون ذكرا حرا سلف من فقد رؤية وسمع وكلم (851)

وأشار في البيتين الأخيرين إلى الشروط المشتركة في صحة ولاية القاضي في المذهب المالكي. فالشروط التي لا يتم القضاء إلا بها ولا تنعقد للقاضي الولاية إلا بتوفرها فيه، ولا يُستدام إلا معها عشرة هي:

الإسلام، والعقل، والبلوغ، والعدالة، والعلم، والذكورة، والحرية، وسلامة حاسة السمع من الصمم، والبصر من العمى، واللسان من البكم. فالشروط الخمسة الأولى هي شروط صحة، وأما فقدان السمع والبصر والنطق إذا طرأت عليه بعد توليه القضاء فإنه يجب عزله، فهذه الثلاثة الأخيرة هي شروط استمرار.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: ولا يكتفى بالعقل المشترك في التكليف بل لابد أن يكون صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيدا من السهو والغلط. وأما شرط الذكورة في القاضي ففيه خلاف بين الفقهاء داخل المذاهب المالكي. وبين المذاهب السنية الأخرى. فيرى الشافعية والحنابلة وجمهور المالكية أن الذكورة شرط في القاضي. ويرى الأحناف أن للمرأة أن تتولى القضاء في الأموال لجواز شهادتها فيها.

وقال الإمام محمد بن جرير الطبري (ت: 310 هـ): يجوز للمرأة أن تكون حاكما على الإطلاق. وقال الإمام أبو الوليد محمد بن أحمد

بن رشد القرطبي: (ت: 595 هـ) والنظر في هذا الباب فيمن يجوز قضاؤه، وفيما يكون به أفضل. فأما الصفات المشترطة في الجواز: فأن يكون حرا مسلما بالغاً ذكراً عاقلاً عادلاً، وقد قيل في المذهب: إن الفسق يوجب العزل ويمضي ما حكم به.

واختلفوا في اشتراط الذكورة - فقال الجمهور هي شرط في صحة الحكم وقال أبو حنيفة: يجوز أن تكون المرأة قاضياً في الأموال، وقال الطبري: يجوز أن تكون المرأة حاكماً على الإطلاق في كل شيء. فمن رد قضاء المرأة شبهه بقضاء الإمامة الكبرى، وقاسها أيضاً على العبد لنقصان حريتها. ومن أجاز حكمها في الأموال فشبها بجواز شهادتها في الأموال ومن رأى حكمها نافذاً في كل شيء قال: إن الأصل هو أن كل من يأتي منه الفصل بين الناس فحكمه جائز إلا ما خصصه الإجماع من الإمامة الكبرى.¹

والخلاصة في المسألة أن المذاهب الإسلامية قد أجمعوا على سبعة شروط يجب أن تتوفر في القاضي وهي أن يكون مسلماً، بالغاً، عاقلاً، حراً، سميعاً، بصيراً، متكلماً. واختلفوا في ثلاثة. وهي العدالة والذكورة والاجتهاد أما العدالة فهي شرط عند المالكية والشافعية والحنابلة فلا يجوز عند هذه المذاهب الثلاثة تولية فاسق القضاء، ولأن كان غير مقبول الشهادة لعدم الثقة بها عند الخاصة والعامة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾².

وأما المذهب الحنفي فيرى أن العدالة ليست شرطاً في القاضي فالفسق يصح قضاؤه، وإذا حكم ثبت حكمه ولكن ينبغي أن لا يعين من باب الاستحسان، كما أن شهادة الفاسق إذا قبلها القاضي جازت وصحت. وأما الحدود في القذف فلا يجوز قضاؤه ولا تقبل شهادته لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾³.

1. أنظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد: الباب الأول في معرفة من يجوز قضاؤه، ج1، ص: 460.

2. سورة الحجرات، الآية: 6 - 3. سورة النور، الآية 4.

وأما الذكورة فهي شرط عند جمهور المالكية والشافعية والحنابلة استنادا وأخذا بظاهر الحديث الذي رواه الأئمة الإمام أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه والترمذي والنسائي في سننهما: عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى، قال: لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.¹

قال الإمام الشوكاني معلقا وشارحا: وفي الحديث دليل على أن المرأة ليست من أهل الولايات ولا يحل لقوم توليتها، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب.² وعلق الدكتور وهبة الزحيلي على شرط الذكورة بعد ذكر الحديث السابق بقوله: بسبب ضعف خبرتها وإطلاعها على واقع الحياة، ولأنه لا بد للقاضي من مجالسة الرجال من الفقهاء والشهود والخصوم والمرأة ممنوعة من مخالطة الرجال بعدا عن الفتنة ولهذا لم يول النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه ولا من بعدهم امرأة قضاء ولا ولاية ببلد.³

وقال الأحناف يجوز للمرأة أن تتولى القضاء في الأموال والأحوال الشخصية والقضاء المدني لجواز شهادتها فيها، وأما في الحدود والقصاص والقضاء الجنائي فلا، لأنه لا شهادة لها فيه، وأهلية القضاء تلازم أهلية الشهادة.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310 هـ) يجوز أن تكون المرأة حاكما على الإطلاق في كل شيء لأنه يجوز أن تكون مفتية، فيجوز أن تكون قاضية.⁴

وأما الاجتهاد فقد اختلفوا فيه. فقال الإمام الشافعي: يجب أن يكون القاضي من أهل الاجتهاد. وقال بوحنيفة: يجوز حكم العامي ويقصد

1. أنظر الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي 453/2 رقم 7393. - 2. أنظر: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في أحاديث سيدي الأخيار للإمام الشوكاني م4-ج8 ص278-باب المنع من ولاية المرأة ومن لا يحسن القضاء أو يضعف عند قيام بحقه. - 3. الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي، ج6، ص: 481-483. - 4. المصادر السابقة: بداية المجتهد، نيل الأوطار، الفقه وأدلته.

بالعامي غير المجتهد. قال القاضي ابن رشد، وهو ظاهر ما حكاه جدي رحمه الله عليه في المقدمات عن المذهب، لأنه جعل الاجتهاد فيه من الصفات المستحبة¹.

مشروعية القضاء

وأما حكم القضاء فهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الفرض على الباقي، وإذا تعطل المنصب أتم الجميع. ولا خلاف بين الأئمة أن القيام بالقضاء واجب كفائي ولا يتعين على أحد إلا أن لا يوجد منه بديل، واجتمعت فيه شروط القضاء ففي هذه الحالة يتعين ويكره عليه، بل يجبر بالضرب والحبس حتى لا تعطل مصلحة المجتمع.

وقال أبو ضياء خليل بن إسحاق (ت: 796 هـ) في مختصره:

ولزم المتعين أو الخائف فتنة، إن لم يتول. أو ضياع الحق؛ القبول والطلب وأجبر وإن بضرب². ونص على مشروعية القضاء الكتاب والسنة والإجماع.

- فمن الكتاب:

1- قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ..﴾³ والخطاب في الآية الكريمة لداود عليه السلام، وهو يشملنا لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ كما هو معروف عند علماء الأصول.

2- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ..﴾⁴

1. بداية المجتهد لابن رشد 460/2. - 2. أ/ مختصر خليل: باب في القضاء وأحكامه، ص: 249.
ب/ حاشية ج، 5-6- باب في القضاء. - 3. سورة ص، الآية 26. - 4. سورة النساء، الآية 105.

3- وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ..¹﴾ إلى غير ذلك من الآيات الصريحة المحكمة التي تأمر بإقامة العدل والفصل بين الناس بالحق، وإعطاء كل ذي حق حقه من غير تمييز ولا تحيز.

- ومن السنة النبوية الشريفة :

أ- ما رواه الإمام الترمذي في جامعه عن زينب عن أمها أم سلمة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فإذا قضيت لأحد منكم بشيء من حق أخيه، فإنما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذ منه شيئاً"².

ب- وروى أبو داود في سننه عن أنس - من أصحاب معاذ بن جبل من أهل حمص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال له:

- كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله³.

1. سورة المائدة، الآية 48. - 2. أ/ الجامع الصحيح - وهو سنن الترمذي ج3، ص: 774 - كتاب الأحكام رقم الحديث 1339 ب/ أنظر الحديث في أبي داود في سننه، م2، ج3، ص: 30 رقم الحديث: 3585. ج/ كما أخرج الحديث الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحهما. - 3. أنظر الحديث في أ/ سنن أبي داود م2- ج3. ص: 303 رقم الحديث 3592 باب اجتهد الرأي في القضاء. ب/ جامع الترميذي، ج3. ص: 615 رقم الحديث: 1327- كتاب الأحكام باب ما جاء في القاضي كيف يقضي. ج/ سنن ابن ماجه، ج2، ص: 788. رقم الحديث: 2357.

ج- وروى الحافظ ابن ماجه في سننه عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن علي، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت: يا رسول الله، تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم، ولا أدري ما القضاء؟ قال، ف ضرب بيده في صدري، ثم قال: " اللهم أهد قلبه وثبت لسانه " قال، فما شككت بعد في قضاء بين اثنين.¹

د- وروى الحديث السابق أبو داود في سننه بصيغة أخرى فيها زيادة وتوضيح أكثر وهي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضياً، فقلت يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء؟ فقال: إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء.

قال: فمازلت قاضياً، أو شككت في قضاء بعد.² ومن الآثار التي وصلت إلينا من عهد الخلافة الراشدة رسالتان للخليفة عمر بن الخطاب وفي الرسالتين تظهر عبقرية عمر في التشريع والقضاء حيث يدعو فيهما إلى الاجتهاد والقياس والإجماع. وعدم التسرع في إصدار الأحكام، وقد تلقتهما الأمة عبر العصور بالرضا والقبول.

يقول في رسالته الأولى التي بعثها إلى قاضيه شريح على البصرة. إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتك عنه الرجال فإن جاءك ما ليس في كتاب الله، فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها. فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله، ولم يكن فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت، إن شئت أن تحتهد برأيك فتقدم، وإن شئت أن تتأخر فتأخر، وما أرى التأخر إلا خيراً لك.³

1. أنظر الحديث في: - ابن ماجه في سننه، ج2، ص: 774. رقم الحديث: 2310. كتاب الأحكام - باب ذكر القضاء. - 2. أنظر سنن أبي داود 301/3 رقم الحديث: 3582 - 3. أنظر الرسالة في أعلام الموقعين لأبي القيم الجوزية ج1، ص/61-62. ب/ الاجتهاد في الفقه الإسلامي ص/154. للاستاذ عبد السلام السليمان.

والرسالة الثانية بعثها إلى قاضيه بالكوفة أبي موسى الأشعري عبد الله ابن قيس، ونصها. بسم الله الرحمن الرحيم من عمر أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعري، سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له، آس بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من أدعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ومن آدعى حقا غائبا أو بينة، فاضرب له أمدا ينتهي إليه، فإن بينه أعطيته بحقه، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية، فإن ذلك هو أبلغ في العذر، وأجلى للعلماء.

ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور، أو مجلودا في حد أو ظنينا في ولاء أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم قاييس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم أعمد فيما ترى إلى أحبها وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر عند الخصومة أو الخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، فإنه من يصلح بينه وبين الله ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله منه، شانه الله، فما ظنك بثواب الله تعالى في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام.¹

1. أنظر الرسالة في أ/ أعلام الموقعين ج1/ص85-86. ب/ مقدمة ابن خلدون م1/ 390-393. ج/ سبل السلام ج4/ص119. د/ تبصرة الحكام ومناهج الأحكام لابن فرحون ج1، ص: 24-25.

فهاتان الرسالتان تعدان مرجعا عظيما للحكام والقضاة ينبغي أن تكونا أمام أعينهم عند الفصل والقضاء بين الخصوم في المحاكم ومجالس القضاء.

ومما يدل على مكانة عمر وبعد نظره ما رواه ابن القيم في أعلامه أن عمر قال: ردوا الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغان.

وفي رواية أخرى عن عمر قال: ردوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا فإنه أثر للصدق وأقل للخيانة، وقال: ردوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة فإن فصل القضاء يورث بينهم الشنان.¹

ومن الإجماع: لقد أجمعت الأمة على أن إقامة فريضة القضاء أمر لازم وأنها من الشعائر الدينية وأنها من فروض الكفاية إذا قام بها البعض سقط الفرض عن الباقين وإذا تعطلت الشعيرة أثم الجميع، لأن المجتمع البشري لا يعيش سالما معافى إلا بإقامة الحدود، والفصل بين الخصوم، وإعطاء كل ذي حق حقه، والتزام الجميع بأداء الحقوق، والرضوخ للقانون الذي يحكم بين الناس بالعدل والمساواة. فالإنسان مدني بطبعه يحتاج إلى غيره، ويحتاجه غيره فلا يستطيع أن يكون في وقت واحد فلاحا، مهندسا، طبيا، معلما، وخرزا، وقاضيا وحاكما. وقديما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام.

فالقضاء على الفوضى، ورد المكائد، وقمع المظالم، ونصرة المظلوم، والفصل في الخصومات والمنازعات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والضرب بيد من حديد على المعتدين والجرمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وإقامة الحدود، والقضاء على الفتن في مهدها كل ذلك من المقاصد الشرعية التي جاءت به كل الشرائع السماوية. حتى يأمن الناس على أنفسهم ودينهم، وعرضهم، وأموالهم، وأنسابهم.

1. أنظر: أعلام الموقعين ج1، ص108. 2. 525. 3. 101. 4. 101. 5. 101. 6. 101. 7. 101. 8. 101. 9. 101. 10. 101. 11. 101. 12. 101. 13. 101. 14. 101. 15. 101. 16. 101. 17. 101. 18. 101. 19. 101. 20. 101. 21. 101. 22. 101. 23. 101. 24. 101. 25. 101. 26. 101. 27. 101. 28. 101. 29. 101. 30. 101. 31. 101. 32. 101. 33. 101. 34. 101. 35. 101. 36. 101. 37. 101. 38. 101. 39. 101. 40. 101. 41. 101. 42. 101. 43. 101. 44. 101. 45. 101. 46. 101. 47. 101. 48. 101. 49. 101. 50. 101. 51. 101. 52. 101. 53. 101. 54. 101. 55. 101. 56. 101. 57. 101. 58. 101. 59. 101. 60. 101. 61. 101. 62. 101. 63. 101. 64. 101. 65. 101. 66. 101. 67. 101. 68. 101. 69. 101. 70. 101. 71. 101. 72. 101. 73. 101. 74. 101. 75. 101. 76. 101. 77. 101. 78. 101. 79. 101. 80. 101. 81. 101. 82. 101. 83. 101. 84. 101. 85. 101. 86. 101. 87. 101. 88. 101. 89. 101. 90. 101. 91. 101. 92. 101. 93. 101. 94. 101. 95. 101. 96. 101. 97. 101. 98. 101. 99. 101. 100. 101. 101. 101. 102. 101. 103. 101. 104. 101. 105. 101. 106. 101. 107. 101. 108. 101. 109. 101. 110. 101. 111. 101. 112. 101. 113. 101. 114. 101. 115. 101. 116. 101. 117. 101. 118. 101. 119. 101. 120. 101. 121. 101. 122. 101. 123. 101. 124. 101. 125. 101. 126. 101. 127. 101. 128. 101. 129. 101. 130. 101. 131. 101. 132. 101. 133. 101. 134. 101. 135. 101. 136. 101. 137. 101. 138. 101. 139. 101. 140. 101. 141. 101. 142. 101. 143. 101. 144. 101. 145. 101. 146. 101. 147. 101. 148. 101. 149. 101. 150. 101. 151. 101. 152. 101. 153. 101. 154. 101. 155. 101. 156. 101. 157. 101. 158. 101. 159. 101. 160. 101. 161. 101. 162. 101. 163. 101. 164. 101. 165. 101. 166. 101. 167. 101. 168. 101. 169. 101. 170. 101. 171. 101. 172. 101. 173. 101. 174. 101. 175. 101. 176. 101. 177. 101. 178. 101. 179. 101. 180. 101. 181. 101. 182. 101. 183. 101. 184. 101. 185. 101. 186. 101. 187. 101. 188. 101. 189. 101. 190. 101. 191. 101. 192. 101. 193. 101. 194. 101. 195. 101. 196. 101. 197. 101. 198. 101. 199. 101. 200. 101. 201. 101. 202. 101. 203. 101. 204. 101. 205. 101. 206. 101. 207. 101. 208. 101. 209. 101. 210. 101. 211. 101. 212. 101. 213. 101. 214. 101. 215. 101. 216. 101. 217. 101. 218. 101. 219. 101. 220. 101. 221. 101. 222. 101. 223. 101. 224. 101. 225. 101. 226. 101. 227. 101. 228. 101. 229. 101. 230. 101. 231. 101. 232. 101. 233. 101. 234. 101. 235. 101. 236. 101. 237. 101. 238. 101. 239. 101. 240. 101. 241. 101. 242. 101. 243. 101. 244. 101. 245. 101. 246. 101. 247. 101. 248. 101. 249. 101. 250. 101. 251. 101. 252. 101. 253. 101. 254. 101. 255. 101. 256. 101. 257. 101. 258. 101. 259. 101. 260. 101. 261. 101. 262. 101. 263. 101. 264. 101. 265. 101. 266. 101. 267. 101. 268. 101. 269. 101. 270. 101. 271. 101. 272. 101. 273. 101. 274. 101. 275. 101. 276. 101. 277. 101. 278. 101. 279. 101. 280. 101. 281. 101. 282. 101. 283. 101. 284. 101. 285. 101. 286. 101. 287. 101. 288. 101. 289. 101. 290. 101. 291. 101. 292. 101. 293. 101. 294. 101. 295. 101. 296. 101. 297. 101. 298. 101. 299. 101. 300. 101. 301. 101. 302. 101. 303. 101. 304. 101. 305. 101. 306. 101. 307. 101. 308. 101. 309. 101. 310. 101. 311. 101. 312. 101. 313. 101. 314. 101. 315. 101. 316. 101. 317. 101. 318. 101. 319. 101. 320. 101. 321. 101. 322. 101. 323. 101. 324. 101. 325. 101. 326. 101. 327. 101. 328. 101. 329. 101. 330. 101. 331. 101. 332. 101. 333. 101. 334. 101. 335. 101. 336. 101. 337. 101. 338. 101. 339. 101. 340. 101. 341. 101. 342. 101. 343. 101. 344. 101. 345. 101. 346. 101. 347. 101. 348. 101. 349. 101. 350. 101. 351. 101. 352. 101. 353. 101. 354. 101. 355. 101. 356. 101. 357. 101. 358. 101. 359. 101. 360. 101. 361. 101. 362. 101. 363. 101. 364. 101. 365. 101. 366. 101. 367. 101. 368. 101. 369. 101. 370. 101. 371. 101. 372. 101. 373. 101. 374. 101. 375. 101. 376. 101. 377. 101. 378. 101. 379. 101. 380. 101. 381. 101. 382. 101. 383. 101. 384. 101. 385. 101. 386. 101. 387. 101. 388. 101. 389. 101. 390. 101. 391. 101. 392. 101. 393. 101. 394. 101. 395. 101. 396. 101. 397. 101. 398. 101. 399. 101. 400. 101. 401. 101. 402. 101. 403. 101. 404. 101. 405. 101. 406. 101. 407. 101. 408. 101. 409. 101. 410. 101. 411. 101. 412. 101. 413. 101. 414. 101. 415. 101. 416. 101. 417. 101. 418. 101. 419. 101. 420. 101. 421. 101. 422. 101. 423. 101. 424. 101. 425. 101. 426. 101. 427. 101. 428. 101. 429. 101. 430. 101. 431. 101. 432. 101. 433. 101. 434. 101. 435. 101. 436. 101. 437. 101. 438. 101. 439. 101. 440. 101. 441. 101. 442. 101. 443. 101. 444. 101. 445. 101. 446. 101. 447. 101. 448. 101. 449. 101. 450. 101. 451. 101. 452. 101. 453. 101. 454. 101. 455. 101. 456. 101. 457. 101. 458. 101. 459. 101. 460. 101. 461. 101. 462. 101. 463. 101. 464. 101. 465. 101. 466. 101. 467. 101. 468. 101. 469. 101. 470. 101. 471. 101. 472. 101. 473. 101. 474. 101. 475. 101. 476. 101. 477. 101. 478. 101. 479. 101. 480. 101. 481. 101. 482. 101. 483. 101. 484. 101. 485. 101. 486. 101. 487. 101. 488. 101. 489. 101. 490. 101. 491. 101. 492. 101. 493. 101. 494. 101. 495. 101. 496. 101. 497. 101. 498. 101. 499. 101. 500. 101. 501. 101. 502. 101. 503. 101. 504. 101. 505. 101. 506. 101. 507. 101. 508. 101. 509. 101. 510. 101. 511. 101. 512. 101. 513. 101. 514. 101. 515. 101. 516. 101. 517. 101. 518. 101. 519. 101. 520. 101. 521. 101. 522. 101. 523. 101. 524. 101. 525. 101. 526. 101. 527. 101. 528. 101. 529. 101. 530. 101. 531. 101. 532. 101. 533. 101. 534. 101. 535. 101. 536. 101. 537. 101. 538. 101. 539. 101. 540. 101. 541. 101. 542. 101. 543. 101. 544. 101. 545. 101. 546. 101. 547. 101. 548. 101. 549. 101. 550. 101. 551. 101. 552. 101. 553. 101. 554. 101. 555. 101. 556. 101. 557. 101. 558. 101. 559. 101. 560. 101. 561. 101. 562. 101. 563. 101. 564. 101. 565. 101. 566. 101. 567. 101. 568. 101. 569. 101. 570. 101. 571. 101. 572. 101. 573. 101. 574. 101. 575. 101. 576. 101. 577. 101. 578. 101. 579. 101. 580. 101. 581. 101. 582. 101. 583. 101. 584. 101. 585. 101. 586. 101. 587. 101. 588. 101. 589. 101. 590. 101. 591. 101. 592. 101. 593. 101. 594. 101. 595. 101. 596. 101. 597. 101. 598. 101. 599. 101. 600. 101. 601. 101. 602. 101. 603. 101. 604. 101. 605. 101. 606. 101. 607. 101. 608. 101. 609. 101. 610. 101. 611. 101. 612. 101. 613. 101. 614. 101. 615. 101. 616. 101. 617. 101. 618. 101. 619. 101. 620. 101. 621. 101. 622. 101. 623. 101. 624. 101. 625. 101. 626. 101. 627. 101. 628. 101. 629. 101. 630. 101. 631. 101. 632. 101. 633. 101. 634. 101. 635. 101. 636. 101. 637. 101. 638. 101. 639. 101. 640. 101. 641. 101. 642. 101. 643. 101. 644. 101. 645. 101. 646. 101. 647. 101. 648. 101. 649. 101. 650. 101. 651. 101. 652. 101. 653. 101. 654. 101. 655. 101. 656. 101. 657. 101. 658. 101. 659. 101. 660. 101. 661. 101. 662. 101. 663. 101. 664. 101. 665. 101. 666. 101. 667. 101. 668. 101. 669. 101. 670. 101. 671. 101. 672. 101. 673. 101. 674. 101. 675. 101. 676. 101. 677. 101. 678. 101. 679. 101. 680. 101. 681. 101. 682. 101. 683. 101. 684. 101. 685. 101. 686. 101. 687. 101. 688. 101. 689. 101. 690. 101. 691. 101. 692. 101. 693. 101. 694. 101. 695. 101. 696. 101. 697. 101. 698. 101. 699. 101. 700. 101. 701. 101. 702. 101. 703. 101. 704. 101. 705. 101. 706. 101. 707. 101. 708. 101. 709. 101. 710. 101. 711. 101. 712. 101. 713. 101. 714. 101. 715. 101. 716. 101. 717. 101. 718. 101. 719. 101. 720. 101. 721. 101. 722. 101. 723. 101. 724. 101. 725. 101. 726. 101. 727. 101. 728. 101. 729. 101. 730. 101. 731. 101. 732. 101. 733. 101. 734. 101. 735. 101. 736. 101. 737. 101. 738. 101. 739. 101. 740. 101. 741. 101. 742. 101. 743. 101. 744. 101. 745. 101. 746. 101. 747. 101. 748. 101. 749. 101. 750. 101. 751. 101. 752. 101. 753. 101. 754. 101. 755. 101. 756. 101. 757. 101. 758. 101. 759. 101. 760. 101. 761. 101. 762. 101. 763. 101. 764. 101. 765. 101. 766. 101. 767. 101. 768. 101. 769. 101. 770. 101. 771. 101. 772. 101. 773. 101. 774. 101. 775. 101. 776. 101. 777. 101. 778. 101. 779. 101. 780. 101. 781. 101. 782. 101. 783. 101. 784. 101. 785. 101. 786. 101. 787. 101. 788. 101. 789. 101. 790. 101. 791. 101. 792. 101. 793. 101. 794. 101. 795. 101. 796. 101. 797. 101. 798. 101. 799. 101. 800. 101. 801. 101. 802. 101. 803. 101. 804. 101. 805. 101. 806. 101. 807. 101. 808. 101. 809. 101. 810. 101. 811. 101. 812. 101. 813. 101. 814. 101. 815. 101. 816. 101. 817. 101. 818. 101. 819. 101. 820. 101. 821. 101. 822. 101. 823. 101. 824. 101. 825. 101. 826. 101. 827. 101. 828. 101. 829. 101. 830. 101. 831. 101. 832. 101. 833. 101. 834. 101. 835. 101. 836. 101. 837. 101. 838. 101. 839. 101. 840. 101. 841. 101. 842. 101. 843. 101. 844. 101. 845. 101. 846. 101. 847. 101. 848. 101. 849. 101. 850. 101. 851. 101. 852. 101. 853. 101. 854. 101. 855. 101. 856. 101. 857. 101. 858. 101. 859. 101. 860. 101. 861. 101. 862. 101. 863. 101. 864. 101. 865. 101. 866. 101. 867. 101. 868. 101. 869. 101. 870. 101. 871. 101. 872. 101. 873. 101. 874. 101. 875. 101. 876. 101. 877. 101. 878. 101. 879. 101. 880. 101. 881. 101. 882. 101. 883. 101. 884. 101. 885. 101. 886. 101. 887. 101. 888. 101. 889. 101. 890. 101. 891. 101. 892. 101. 893. 101. 894. 101. 895. 101. 896. 101. 897. 101. 898. 101. 899. 101. 900. 101. 901. 101. 902. 101. 903. 101. 904. 101. 905. 101. 906. 101. 907. 101. 908. 101. 909. 101. 910. 101. 911. 101. 912. 101. 913. 101. 914. 101. 915. 101. 916. 101. 917. 101. 918. 101. 919. 101. 920. 101. 921. 101. 922. 101. 923. 101. 924. 101. 925. 101. 926. 101. 927. 101. 928. 101. 929. 101. 930. 101. 931. 101. 932. 101. 933. 101. 934. 101. 935. 101. 936. 101. 937. 101. 938. 101. 939. 101. 940. 101. 941. 101. 942. 101. 943. 101. 944. 101. 945. 101. 946. 101. 947. 101. 948. 101. 949. 101. 950. 101. 951. 101. 952. 101. 953. 101. 954. 101. 955. 101. 956. 101. 957. 101. 958. 101. 959. 101. 960. 101. 961. 101. 962. 101. 963. 101. 964. 101. 965. 101. 966. 101. 967. 101. 968. 101. 969. 101. 970. 101. 971. 101. 972. 101. 973. 101. 974. 101. 975. 101. 976. 101. 977. 101. 978. 101. 979. 101. 980. 101. 981. 101. 982. 101. 983. 101. 984. 101. 985. 101. 986. 101. 987. 101. 988. 101. 989. 101. 990. 101. 991. 101. 992. 101. 993. 101. 994. 101. 995. 101. 996. 101. 997. 101. 998. 101. 999. 101. 1000. 101. 1001. 101. 1002. 101. 1003. 101. 1004. 101. 1005. 101. 1006. 101. 1007. 101. 1008. 101. 1009. 101. 1010. 101. 1011. 101. 1012. 101. 1013. 101. 1014. 101. 1015. 101. 1016. 101. 1017. 101. 1018. 101. 1019. 101. 1020. 101. 1021. 101. 1022. 101. 1023. 101. 1024. 101. 1025. 101. 1026. 101. 1027. 101. 1028. 101. 1029. 101. 1030. 101. 1031. 101. 1032. 101. 1033. 101. 1034. 101. 1035. 101. 1036. 101. 1037. 101. 1038. 101. 1039. 101. 1040. 101. 1041. 101. 1042. 101. 1043. 101. 1044. 101. 1045. 101. 1046. 101. 1047. 101. 1048. 101. 1049. 101. 1050. 101. 1051. 101. 1052. 101. 1053. 101. 1054. 101. 1055. 101. 1056. 101. 1057. 101. 1058. 101. 1059. 101. 1060. 101. 1061. 101. 1062. 101. 1063. 101. 1064. 101. 1065. 101. 1066. 101. 1067. 101. 1068. 101. 1069. 101. 1070. 101. 1071. 101. 1072. 101. 1073. 101. 1074. 101. 1075. 101. 1076. 101. 1077. 101. 1078. 101. 1079. 101. 1080. 101. 1081. 101. 1082. 101. 1083. 101. 1084. 101. 1085. 101. 1086. 101. 1087. 101. 1088. 101. 1089. 101. 1090. 101. 1091. 101. 1092. 101. 1093. 101. 1094. 101. 1095. 101. 1096. 101. 1097. 101. 1098. 101. 1099. 101. 1100. 101. 1101. 101. 1102. 101. 1103. 101. 1104. 101. 1105. 101. 1106. 101. 1107. 101. 1108. 101. 1109. 101. 1110. 101. 1111. 101. 1112. 101. 1113. 101. 1114. 101. 1115. 101. 1116. 101. 1117. 101. 1118. 101. 1119. 101. 1120. 101. 1121. 101. 1122. 101. 1123. 101. 1124. 101. 1125. 101. 1126. 101. 1127. 101. 1128. 101. 1129. 101. 1130. 101. 1131. 101. 1132. 101. 1133. 101. 1134. 101. 1135. 101. 1136. 101. 1137. 101. 1138. 101. 1139. 101. 1140. 101. 1141. 101. 1142. 101. 1143. 101. 1144. 101. 1145. 101. 1146. 101. 1147. 101. 1148. 101. 1149. 101. 1150. 101. 1151. 101. 1152. 101. 1153. 101. 1154. 101. 1155. 101. 1156. 101. 1157. 101. 1158. 101. 1159. 101.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾¹.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾².

القضاء في عهد النبوة والخلافة الراشدة

وكان القضاء في حياة الرسول الله صلى الله عليه وسلم موقوفاً عليه لأنه المتلقي لما أنزل إليه من ربه، ولا يولي أحداً فيما حضره من القضايا، ومشاكل المجتمع، كما لا يتقدم أحد بين يديه، امتثالاً للقرآن الكريم الذي يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ...﴾³.

وأما ما غاب عنه من القضايا والنوازل فإنه كان يبعث من يقوم مقامه فقد بعث علياً ومعاذاً ومعللاً بن يسار رضي الله عنهم أجمعين قضاءً وحكاماً ودعاةً ومعلمين، مبلغين رسالة الإسلام إلى البلدان التي دخلت في الإسلام عن طواعية، ورغبة. لا عن إكراه ولا إجبار. إذ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁴. كما كان الخلفاء الراشدون يفعلون ذلك غالباً اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يحكمون فيما يقع من حوادث في مقر الخلافة، ويولون قضاءً وولاً إلى البلدان البعيدة عن مقر الخلافة كاليمن، والعراق والشام، ومصر والمغرب، نيابة عنهم في الفصل في المنازعات والنوازل التي تحدث في المجتمع. وأول من دفع القضاء إلى غيره وفوضه فيه عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه في المدينة..⁵

وأشير هنا إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم قد تفرقوا في الأقطار المفتوحة، وخاصة في عهد الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

1. سورة آل عمران، الآية 104. - 2. سورة التوبة، الآية 122. - 3. سورة الحجرات، الآية 1. - 4. سورة البقرة، الآية 256. - 5. أنظر: مقدمة ابن خلدون، العبر، 220/1.

فقد كانوا يفتون الناس ويعلمونهم دينهم وكان الولاية والقضاة المعينون من الخلافة يحكمون ويفصلون فيما يقع في قضايا المجتمع ومن هنا ينبغي أن نذكر بأن هناك فرقا بين المفتي والقاضي فالفتوى محض إخبار بلا إلزام، بينما القضاء إخبار يتبعه إلزام بالتنفيذ.

- قال شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي المغربي (ت: 684 هـ). الفتوى والحكم كلاهما خبر عن الله تعالى ويجب على السامع اعتقاد ذلك، إلا أن الفتوى محض إخبار، والحكم إخبار معناه الإنشاء والإلزام. وكلاهما يلزم المكلف، فالمفتي مع الله تعالى كالمترجم مع القاضي ينقل عنه ما وجده عنده واستفاده منه بإشارة أو عبارة أو فعل أو تقرير أو ترك. والحاكم مع الله تعالى كنائب الحاكم ينشئ الأحكام والإلزام وليس بناقل ذلك بل مستنبئه، فكأنه قال له: أي شيء حكمت به على القواعد التي وضعتها لك فقد جعلته حكمي. فكلاهما مطيع لله تعالى ناقل لحكمه غير أن أحدهما منشئ والآخر ناقل¹.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾²

فقول القرافي: يجب على السامع اعتقاد ذلك يعني أن ما أخبر به المفتي وما ألزم به القاضي هو حكم الله، ومن أجل ذلك قال قاض الخصم اتهمه بالجور في حكمه وعدم العدل بينه وبين خصمه: أنت لست بمؤمن، فقال الخصم بماذا كفرتني؟ فقال له القاضي بقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا...﴾³.

ونقل الخطّاب عن المشدالي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بالبصرة: أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة، وكلاهما من علماء البصرة

¹. الفروق: ج4، ص48 بتصرف - 2. سورة النساء، الآية 59. - 3. سورة النساء، الآية 65.

وفقهائها قول القضاء أنفذهما، فجمع العامل بينهما وذكر لهما ما كتب له به الخليفة، فقال له إياس: سل عني وعن القاسم فقيهي المصر الحسن البصري ومحمد ابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما والقاسم يأتيهما، فعلم القاسم إن سألهما العامل أشارا به، فقال للوالي لا تسأل عني ولا عنه، فوالله الذي لا إله هو إن إياسا أفقه مني وأعلم بالقضاء، فإن كنت كاذبا فما عليك أن توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي، فقال له إياس: إنك جئت برجل وأوقفته على شفا جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة فيستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال له الوالي أما إنك قد فهمتها فأنت لها، فاستقضاه..¹

من هذه اللطيفة نعلم كيف كان أسلافنا يتحرون لدينهم ويفرون من تولي المسؤولية والمناصب العليا خوفا على أنفسهم من عدم الصمود أمام المغريات ومما تهاواه الأنفس من حب الظهور والتنعم بالقصور، والتحكم في الرقاب. وإن كانوا على درجة عالية من العلم والتفقه في الدين، والزهد في الدنيا والاستعداد ليوم الميعاد، إذ كم عسى أن يسبح من وقع في وسط البحر.

ولكن الحياة ينبغي أن تسير إلى الأمام، والأرض يجب أن تزدهر وتعمر سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا.

طلب القضاء

قال ابن شاس: ولا ينبغي أن يقدم على ولاية القضاء إلا من وثق بنفسه، وتعين لذلك فإمام العدل إجباره على القبول إن كان صالحا وتوفرت فيه شروط القاضي، وله أن يهرب ويمتنع إلا أن يعلم أنه تعين عليه فيجب عليه القبول بل يجب عليه السعي في طلبه وتحصيله لتعين القيام بهذا الفرض عليه - والدليل على ذلك قصة يوسف عليه السلام

1. أنظر البهجة في شرح التحفة، ج 1، ص 18: لأبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي.

مع ملك مصر بعد أن تحقق من براءته وما نسب إليه، فأخرجه من السجن ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ: آيْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾¹ فيوسف عليه السلام كان في قوم مشركين فأراد إصلاحهم ودعوتهم إلى الله، وإنقاذهم من الشرك والضلال، والظلم والفساد بالسعي في هذه الولاية دون غيرها لأن المتولي لأرزاق العباد تذلل له الرقاب وتخضع له الجبابرة، ولا يستغني أحد عن بابه. فالناس سراع إلى الدنيا فهذا طلب نبي الله يوسف عليه السلام من عزيز مصر وملكها هذه الولاية دون غيرها من الولايات. وذكر أهل الفقه والاختصاص أن طلب القضاء تعتريه الأحكام الشرعية الخمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح.

1- فطلب القضاء يكون واجبا إذا كان الطالب من أهل الاجتهاد في الباب. ومن أهل الجزالة والعدالة، ولم يكن في البلد من يصلح للقضاء غيره، أو أنه إن لم يتول القضاء هو وليه من لا تحل ولايته، وكذا إذا قصد بطلبه حفظ الحقوق: وجريان الأحكام على وفق الشريعة والقانون، فإنه في هذه الحالات يجب عليه الطلب والسعي للمنصب وإلا أثم وارتكب كبيرة من الكبائر التي لا يغفرها الله تعالى إلا بالتوبة والندم والاستغفار.

2- ويكون طلب القضاء مستحبا ومندوبا إذا كان الطالب عالما خفي علمه على الناس فأراد ولي الأمر أن يشهره بولاية القضاء ليعلم الجاهل ويفيد المجتمع بعلمه، أو أنه خامل الذكر لا يعرفه الحاكم ولا الناس فأراد بسعيه أن يعرف المجتمع مكانته العلمية فيستحب له العمل على الوصول إلى المنصب والدخول فيه بهذه النية.

1. سورة يوسف، الآية 54-55. 1. سورة يوسف، الآية 54-55. 1. سورة يوسف، الآية 54-55.

قال المازري أبو عبد الله محمد بن علي (ت: 536/هـ - 1161م). وقد يستحب لمن لم يتعين عليه ولكنه يرى أنه أنفع للمسلمين من آخر تولاه وهو من يستحق التولية ولكنه مقصر عن هذا.¹

3- وقد يكون طلب القضاء محرماً إذا كان الطالب للمنصب جاهلاً ليست له أهلية القضاء أو أنه من أهل العلم وكان قصده الانتقام من أعدائه، أو قبول الرشاوى من الخصوم، أو أنه متلبس بما يوجب فسقه.

4- وقد يكون طلب القضاء مكروهاً إذا كان السعي في طلبه لأجل تحصيل الجاه والمكانة في المجتمع والاستعلاء على الناس، لأن الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾².

5- والوجه الخامس أن يكون طلب القضاء مباحاً إذا كان الطالب فقيراً ذا عيال ولا يجد منصبا يكفيه القيام بواجب النفقة على نفسه وعلى من تلزمه نفقتهم عليه وبذلك يدفع عن نفسه الضرر والحاجة.³

مكانة القضاء وفضله

قال برهان الدين إبراهيم بن محمد بن فرحون في كتابه القيم "تبصرة الحكام" اعلم أن أكثر المؤلفين بالغوا في التحذير والترهيب من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهية السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها والهروب منها حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه أمر دينه، وألقى بيده في التهلكة.

قال ابن فرحون بعده هذه المقدمة، وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته في الدين، فبه بعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبالقيام به قامت

1. أنظر تبصرة الحكام لابن فرحون 14/1 - بتصرف. - 2. سورة القصص، الآية 83. - 3. سنن الترمذي 617/3 - كتاب الأحكام - باب في الإمام العادل.

السموات والأرض، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم من النعم التي يباح الحسد عليها.¹ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعمل بها.²

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: هل تدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوا بذلوه، وإذا حكموا للمسلمين حكموا كحكمهم لأنفسهم.³

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد..... الحديث.⁴

أنظر كيف بدأ السبعة بالإمام العادل. لأهميته، ومكانة العدل عند الله تعالى إذ به يسعد المجتمع، ويعلو شأن الدول والأمم.

وروى الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري في صحيحه عن زهير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما أوتوا - أي كانت لهم عليه ولاية.⁵

وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأن أقضي يوماً أحب إلى من عبادة سبعين سنة. مراده أنه إذا قضى يوماً بالحق كان أفضل من عبادة

1. أنظر: التبصرة، ج 1، ص: 25 - 2. أنظر صحيح البخاري، كتاب العلم. باب الإغتباط في العلم والحكمة رقم 73 ص 17 - 3. أنظر المسند، ج 6، ص: 67 رقم: 562 - 4. أنظر أ/ صحيح البخاري، كتاب الآذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة رقم: 659. ب/ الإمام الترمذي في جامعه في كتاب الزهد باب ما جاء في الحب في الله عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد ج 4 ص: 958 رقم: 391. ج/ تنوير الحولك شرح موطأ الإمام مالك لجلال الدين السيوطي ج 2، ص: 235 ما جاء في المتحايين في الله - 5. أنظر: صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل، ج 3 ص 1458 رقم: 18

سبعين سنة. فالعدل بين الناس من أفضل أعمال البر وأعلى درجات الأجر عند الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾¹.
وأي شرف للإنسان أشرف من محبة الله له.

وأما ما ورد من الأحاديث التي فيها تخويف وتحذير ووعيد لمن يتولى القضاء والفصل بين الخصوم وإنما يراد بذلك الوعيد القضاة الجهال الذين يحشرون أنفسهم في هذا المنصب الخطير من غير علم فيهلكون ويهلكون. وأما ما رواه أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين.²

وفي رواية أخرى عنه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين.³ فإن هذا الحديث يدل على شرف القضاء وعظيم مكانته عند الله تبارك وتعالى فالمتولي للقضاء مجاهد لنفسه وهواه، حيث يقضي بالحق رغم المغريات التي يتعرض لها من الخصوم من الرشاوى، وصبر على مخالفة الأقارب والأحباب وأصحاب المال والجاه في خصوماتهم، وجعله المنصب ذبيح الحق امتحاناً واستحق بذلك عظيم الثواب امتناناً من الله عز وجل.

فالقاضي إذا استسلم لحكم الله ولم تأخذه في الحق لومة لائم فقاد المتخاصمين إلى الحق ولو كان مرأً عليهم، وحملهم على العدل والإنصاف، وقطع رجاءهم في حيفه وأنه لن يسايرهم على الباطل ولن يدهن في الحق فهو المجاهد في الحق والمذبوح بغير سكين.

هكذا ينبغي أن يفهم الحديث، وإلا فكيف يولي رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاء علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، ومعل بن سيار

1. المائة: 42 - 2. أنظر سنن أبي داود - كتاب الأفضية - باب في طلب القضاء - عن أبي هريرة ج 3 ص: 298 رقم الحديث: 3571 - 3. الحديث في نفس الكتاب والباب والجزء ص: 299/3 رقم: 3572

رضي الله تعالى عنهم أجمعين فنعم الذابح، رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعم المذبح أولئك الأعلام العظام من الصحابة الكرام. فالتحذير الوارد من الأحاديث والآثار، من الكتاب العزيز إنما هو عن الظلم والجور، لا عن القضاء والفصل بين المتنازعين - فإن الجور في الأحكام واتباع الهوى فيه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾¹.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن اعتنى الناس على الله، وأبغض الناس إلى الله وأبعد الناس من الله، رجل ولاه الله من أمر أمة محمد شيئاً ثم لم يعدل بينهم.

وروى الأئمة البخاري، والنسائي، وأبو داود وأحمد، وابن ماجه في مصنفاتهم واللفظ لأبي داود عن أبي بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار² وروى الإمام الترمذي في سننه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناهم منه مجلساً: إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً: إمام جائر.³

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء - الذي ولاه الخليفة عمر القضاء في المدينة المنورة قائلاً له:

بلغني أنك جعلت طبيباً تداوي فإن كنت تبرئ فنعم وإن كنت متطبياً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار "فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا نظر إليهما ثم قال ارجعا إلي أعيدا علي قضيتكما متطبب والله.

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره دخل الجنة⁴.

1. سورة الجن، الآية 15 - 2. أنظر الحديث في سنن أبي داود 299/3 رقم: 3573 - 3. أنظر: سنن الترمذي ج 3، ص 6/7 كتاب الأحكام - باب في الإمام العادل - 4. أنظر سنن أبي داود 299/3 رقم: 3575.

ومما تقدم من الأحاديث والآيات نعلم أن الوعيد من تولية القضاء إنما ينصرف إلى من علم في نفسه الضعف وعدم القدرة على تحمل أعباء الفصل بين الناس بما يجب عليه من لزوم الحق والبعد عن الهوى.

وكذا من رأى نفسه أهلاً للمنصب ولكن الناس لا يرونه أهلاً لذلك:

قال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه: لا خير فيمن يرى نفسه أهلاً لشيء لا يراه الناس له أهلاً. والمراد بالناس من كلام مالك إنما هم العلماء لا عامة البشر إن طلب المنصب لمن يرى نفسه أنه أهل لذلك وأنه سيقوم بالحق أحسن قيام، وإنه يضرب على أيدي الظالمين والجرمين، ويزرع العدل بين الرعية، أو أنه إن لم يطلب المنصب تولاه من هو جاهل أو عالم فاسق عالم، أو لم يكن في البلد من يساويه، ففي هذه الحالات يجب عليه وجوباً عينياً أن يتولى القضاء إن طلب منه الحاكم، ويجب عليه أن يطلبه هو حرصاً على المصلحة العامة إن كان أمره غير معروف عند أولي الأمر.

هذا وإن طلب القضاء والحرص عليه من غير وازع إصلاحي اجتماعي هو حسرة وندامة في عرصات يوم القيامة.

فقد روى الأئمة: أحمد، والبخاري والنسائي في كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم - واللفظ للبخاري - قال: إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون حسرة وندامة يوم القيامة، فنعم المرزعة وبئست الفاطمة.¹

فمن طلب القضاء وحرص عليه ترك الله إعانته عليه وفوضه إلى تدبير نفسه وخيف عليه الهلاك، ومن لم يسأله وامتنحن به، وهو كاره له خائف على نفسه فيه أعانه الله عليه وفتح له أبواب التوفيق والفلاح.

فقد روى أبو داود في سننه عن خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

1. أنظر صحيح البخاري: كتاب الأحكام - باب ما يكره من الحرص على الإمارة، ص/203-رقم 7148.

من طلب القضاء واستعان عليه وُكِّل إليه، ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل الله ملكا يسدده.¹

وروى الإمام البخاري عن عبد الله بن سمره قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك أن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها.²

وهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه نظر إلى شاب في وفدٍ وفدٍ عليه فأعجبه حاله فإذا هو يسأل القضاء، فقال له عمر: إن الأمر لا يقوى عليه من يحبه وكان من هديه صلى الله عليه وسلم توليه الأنفع للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه فقد ولي خالد بن الوليد بعد إسلامه على كثير من غزواته وحروبه لنكايته في العدو، وخبرته في القتال، وقدمه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار كعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر، وسالم مولى أبي حذيفة، وهم من الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا في سبيل الله.

وخالد بن الوليد ممن أنفق بعد الفتح وقاتل - فإنه أسلم بعد صلح الحديبية هو وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة الحنفي، ثم إنه قاتل بني جذيمة في فتح مكة، وقد أمر الرسول الله صلى الله عليه وسلم أمراءه وحاملي لواء القتال أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ومع هذا لم يعزله عن القيادة، نظرا للمصلحة العامة.

وقد أمر عمر الخليفة أن يوكل على الأموال الدين التقي الورع - وسئل عن رجلين أحدهما تقي ورع ليست له خبرة بالقتال والحرب والآخر ليس في درجة الأول تدينا وخلقا، وله حنكة في الحرب والغزو. فقال يعزى مع الأنكى في العدو لأنه أنفع للمسلمين.

والله أعلم

وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه

1. أنظر سنن أبي داود: باب في طلب القضاء والشرع إليه. 300/3 رقم 3578. - 2. أنظر صحيح البخاري في كتاب الأحكام - باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها - ص/ 1230 رقم 7156